المعركة النقدية حول شعر أحمد شوقي

د. محمد عيسى الحوراني

المقدمة

إن المتتبع للأدب العربي الحديث يلحظ وجود عدد من المحاولات الجادة للانعتاق بالشعر من السبات الذي ران عليه في عصور الانحطاط، فظهر جيل من الشعراء حاولوا إحياء صورة الأدب العربي القديم، وكان من أبرزهم البارودي رائد حركة البعث والإحياء، وأعقب ذلك ظهور المحافظين وعلى رأسهم أحمد شوقي.. وفي تلك الأثناء كانت مدرسة الديوان التي رأت في هؤلاء المحافظين ما يحول دون التجديد في الشكل والمضمون، مما حدا بأصحاب هذه المدرسة إلى إشهار أقلامهم بوجه التقليد، لتنبري حركة النقد المنادي بضرورة التجديد، والمستجيب لروح العصر.

وكان شوقي يمثل الاتجاه المحافظ في حين كان العقاد يمثل مدرسته المنادية بالتجديد، مما فتح المجال لأعظم معركة في النقد العربي الحديث، امتدت فترة طويلة من الوقت، وأثارتها تداخلات وتعالقات متنوعة، لعل أبرزها إمارة شوقي للشعراء، ودخول عدد من النقاد - داخل مصر وخارجها - إلى ساحة المعركة، ما بين مناصر لشوقي، ومعارض له.

فقد " هاجمه إبراهيم المازني وعباس العقاد وطه حسين ثم هاجمه هيكل بعد أن كتب له مقدمة ديوانه، وأصدرت السياسة الأسبوعية عددا خاصا عنه، ثم غير المازني وطه حسين رأيهما في شوقي وأصر العقاد على رأيه"(١).

من هنا جاءت هذه الدراسة لتحاول نفث الرماد، والوقوف على تعالقات تلك المعركة، وأبرز أسلحتها، وما خلفته من نتائج، منطلقة من القطب الرئيس الذي تبنّى تلك الحرب الطويلة، وهو العقاد، ومعرجة أحيانا على بعض جنود تلك المعركة ما بين منافح في صفّ شوقي، ومواجه في صفّ العقاد، ومحايد مهتم بالتلقي.

وقد جاءت هذه الدراسة في ثلاثة مباحث تسبقها مقدمة وتليها خاتمة، فكان المبحث الأول

تحت عنوان (زمن المعركة) عرضت فيه لأربع مراحل شكّلت مستويات المعركة، ومن ثم جاء المبحث الثاني لعرض دوافع المعركة وبواعثها، للوقوف على أبرز الدوافع التي أججت الأقلام، كما جاء المبحث الأخير للوقوف على محاور المعركة، وأبرز قضاياها النقدية.

وقد أفدت من بعض المراجع المساندة، إلى جانب المصدرين الرئيسين: (الديوان) و(الشوقيات)، محاولا الوصول إلى تصور حول أبرز القضايا التي أثيرت حول شوقي، ولا سيما بعد إمارته للشعراء، إذ أجج ذلك مشاعر الطامحين إلى الإمارة.

وقد كان للبحث في المعركة النقدية حول شوقي مساران: توثيقيّ تسجيليّ يقوم على رصد تجليّات تلك المعركة، وتحليليّ تطبيقيّ يقوم على تحليل تلك التجليّات واستقراء معطياتها، مرورا بالمرحلة الزمنية التأريخية، والدوافع المستثيرة للحرب، وصولا إلى أبرز القضايا المطروحة، لأختم بالنتائج التي توصل إليها البحث.

ويبقى هذا الجهد استثارة لكوامن داخلية، تلحّ على مزيد من البحث والاستقصاء، لتعالقات كثيرة في هذا الموضوع، إذ إنّ بحثا موجزا بهذا الإطار لا يمكن له أن يحيط بملاحم طويلة الأمد ذات اتساع جغرافي وامتداد زمني من هذا النوع.

المبحث الأوّل: زمن المعركة

قبل المنفى

في المرحلة التي سبقت النفي لم يكن للمعركة حول شوقي أوار، ولم تكن قد استعرت بعد، وإن كان العقاد قد وجه لشعره بعض النقود، كما هو الحال في نقده

بضعة أبيات من قصيدة "رثاء بطرس غالي " في العام ١٩١٢، أي قبل النفي بعامين.

على أن شوقي لم يكن مجهولاً آنذاك، فقد عرف عنه أنه كان يتغنى بالخلافة العثمانية ورجالاتها، وكان أكثر شعره مسخراً لهذا الغرض، وعلى الرغم من أن ذلك قد يكون حائلاً بين شوقي وتلقي العرب لشعره، إلا أن كثيرين أبدوا إعجابهم بذلك الشعر منذ مراحله الأولى، ويلخص ذلك شكيب أرسلان بقوله: " خرجت من مصر في أواخر عام ١٨٩٠ م وأنا لا أسمع بشاعر اسمه شوقي في مصر، إلا أنه لم يطل الأمر حتى قرأت شعراً آخر له فلم أمجه، ووجدته من الشعراء الذين يقال فيهم (من حقه أن تسمعه) ".(٢)

ويشير بعد ذلك إلى اطلاعه على نماذج أخرى لشوقي فأعجب بها أيما إعجاب، وأصبح يتهافت على شعره (٣). وقد انبرى كثيرون للإعجاب بهذا الشعر داخل مصر وخارجها، كما انبرى آخرون، وعلى رأسهم العقاد لرفض هذا الشعر والقدح بصاحبه.

وإذا علمنا أن " الشوقيات " بجزئه الأول كان قد صدر عام ١٩٠٠م، وأنه وجد إقبالاً كبيراً، عرفنا أن المدة الزمنية التي تفصل بين النشر والمنفى تعادل أربع عشرة سنة وهي مدة كافية لسعة انتشار الشاعر، ومع أن المعركة لم تتبلور في تلك الفترة، إلا أن طلائعها بدأت على يد العقاد، الذي وجه بعض سهامه لنقد أبيات من هنا أو هناك من شعر شوقي.

بعد المنفى

بعد نفي شوقي إلى الأندلس إبان الحرب العالمية الأولى، ومع تغير الظروف السياسية والاجتماعية حدث تحول كبير في البعد الموضوعي لقصائده، فبعد أن كانت تلك القصائد مسخرة للإشادة بالقصر وبالحكام العثمانيين أصبحت تقارب روح الأمة وتتعاطى مع قضاياها، فكانت سينيته – التي تحولت فيما بعد إلى محطة من محطات المعارك النقدية – بداية ذلك التحول وبداية تلمس الوجع العربي عبر الذات المغتربة.

ولا يفوتنا الحال التي صارت عليها الأمة بعد الحرب، وأثر ذلك في الأدب عامة، وفي الشعر ونقده خاصة، فكان أن ظهر تيار المحافظين وعلى رأسهم شوقي، وتيار المجددين، وعلى رأسهم العقاد، فانبرى الأخير لخوض معركة نقدية لم يشهد النقد العربي مثيلا لها، " فما يعرف أدباء العربية أحدا كان أبلغ عداوة لشوقي أو أحدّ لسانا في نقده من العقاد"(٤).

ومع أن النفي كان نقطة تحول في شعر شوقي ونفسه ومواقفه، إلا أن ذلك التحول لم يرض طموح المجددين، فهو تحول مواقف، لا تحول نهج شعري، على الرغم من أن ذلك التحول وجد رواجاً إعلامياً، فبعد عودة شوقي من منفاه في عام ١٩٢٠ لاقته بعض الصحف بالترحاب والثناء مشيدة بإمكاناته الشعرية ومقدرته الإبداعية، ومن تلك الصحف صحيفة "عكاظ " التي تحمست له، وهاجمت دعاة التجديد ومنهم العقاد، وحطت من قدرهم في حين أعلت من شأنه(٥).

ولعل ذلك كان مدعاة ليستل العقاد قلمه، ويبدأ هجمة شرسة كان قد مهد لها سابقاً، ولكنها كانت خابية فاشتعلت، واشتد أوارها كما سيأتي.

بعد الإمارة

في عام ١٩٢٧ تمت مبايعة شوقي أميراً للشعراء، وربما كان ذلك دافعاً جديداً لشن حملات متعددة البواعث على هذا الأمير وهذه الإمارة التي لم تكن ترضي الكثيرين.

وكان أبرز غير الراضين العقاد الذي شن حملة شعواء على شوقي، معلناً أنه سيلقنه درساً يفيد منه في صنعة الشعر، فكتب سلسلة من المقالات تتحدث عن طبيعة الشعر ورسالته وسوء التقليد فيه وأثر الصناعة عليه، كما نقد قصيدته التي ألقاها في حفل التتويج (٦).

وتوالت ردود الأفعال الأخرى فمن مرحب إلى رافض، وكان بين القبول واللاقبول بواعث ودوافع متعددة شكلت في مجملها حالة من الحراك النقدي حول شوقي، الذي كلله العقاد بامتياز، وجعل من غمزه بشوقي ومكانته وإمارته طريقاً لسبر أغوار عدد من القضايا النقدية.

وكان صدى الإمارة في الأقطار العربية يتأجج لدى بعض الشعراء الذين كانوا يرون أنفسهم أحق بها، ومن هؤلاء الشاعر العراقي الزهاوي الذي " لم يكن يعترف بشاعرية غيره، فكيف إذا كان هذا الشاعر قد أصبح (أميراً للشعراء)... إن الزهاوي قد أغضبه هذا التنصيب، فهو أحق به من أحمد شوقي، كما يعتقد. أعرب الزهاوي عن رأيه هذا مراراً، إلا أنه تنازل شيئاً ما، فقبل أن يكون شوقي (أميراً لشعراء مصر)... وقد سر الزهاوي كثيراً عندما بدأت (جماعة الديوان) تهاجم شعر أحمد شوقي وتحط من شاعريته... وأخذ يتحين الفرص لنقد شعر شوقي..

وتجيئه الفرصة حين نشرت إحدى

صحف بغداد مرثية شوقي لإسماعيل صبري، فراح الزهاوي ينتقد هذه القصيدة نقداً جارحاً) ٧).

وبعد أن صدر ديوان (الشوقيات (تناول الزهاوي بالنقد ثلاث قصائد منه، تماماً كما كان يفعل العقاد في اختيار بعض القصائد الهزيلات من شعر شوقي، وراح يوسعها ويوسع شوقي تهكما وسخرية. غير أن الزهاوي يتناولها من الجانب اللغوي – في حين لم يكن ضليعاً في اللغة ! – والغريب أن هذه المقالات نشرها الزهاوي – دون توقيع – في مجلة (لغة العرب) التي كان يصدرها في بغداد العلامة الأب أنستاس الكرملي. ولذلك ظل المعروف أن المتطوع لنقد القصائد الشوقية هو الكرملي نفسه، صاحب المجلة، وليس سواه. وطبعاً لم يتنازل شوقي إلى الاكتراث بنقد الزهاوي، كما لم يتنازل قط من قبل إلى الاكتراث بنقد العقاد (٨).

وكل ذلك لا يشكل قدحا بمكانة شوقي، ولا بأحقيته في الإمارة، فقد كان الكثير من الشعراء المنافسين له راضين بذلك، ومنهم حافظ إبراهيم وخليل مطران، وغيرهم من شعراء مصر والأقطار العربية الأخرى..ويرى محمد عبد المطلب" أن المتعاركين انقسموا إلى ثلاث فئات، الأولى هاجمت شوقي واتهمته بالتقليد، وأنه أضاف إلى القديم قديما، فيما الفئة المدافعة عنه رأوا انه أول المجددين، فضلا عن الصنف الثالث الذي لم يناصر أي طرف"(٩).

بعد الوفاة

لم تخب حدة المعركة النقدية التي شنها العقاد وآخرون على شوقي، واستمرت بعد وفاته عام ١٩٣٢، ولكنها أخذت تخفف من جذوة العنف، ونبو الأساليب، فازدادت لغة العقاد اتجاه شوقي هدوءاً وسكينة على الرغم من أنه ما فتئ يوجه سهام النقد له عبر مقالات ومناسبات كثيرة ومتنوعة(١٠).

ومع أن المعارك لا بد لها من طرفين، إلا أن معركة العقاد التي شنها على شوقي قبل وفاته لا تختلف عنها بعد الوفاة من حيث المواجهة، إذ لم يكن شوقي معنيا بالرد على العقاد أو الزهاوي أو غيرهما إبان حملتهم عليه في حياته، كما أن المعركة استمرت من طرف واحد بعد مماته.

وقد نشر العقاد مجموعة من المقالات بعد موت شوقي في عدد من المجلات تشي جميعها بتغير حدة الرجل اتجاه غريمه، وبالاعتدال والوسطيه في تناول شعره، وهو وإن لم يغير موقفه تماماً إلا أنه كان ينصف الرجل، واعترف ببلوغه ذروة البيان، وإن كان يغمز في ذلك، في إشارته إلى بيان شوقي بشعر الصنعة (١١).

المبحث الثاني: دوافع المعركة

الدافع الشخصي

كثيراً ما تبدأ المعارك النقدية والشعرية على مستويات شخصية، ولدوافع ذاتية غير موضوعيه، وملامح ذلك معروفة في كل عصر وزمن..وأحياناً ما تكون الدوافع الشخصية وراء شهرة الشاعر أو الأديب، وأحياناً يتخذها الناقد نفسه ذريعة للوصول إلى هدف ما..

وعَوْدا إلى المعركة حول شوقي، نجد أن " أصحاب الأقلام فريقان: مغال في تعديله، وغال في تجريحه.. ذاك ينكر عليه كل فضل وكل عطاء جديد، وهذا يرفعه إلى أعلى المنازل بين شعراء العرب"(١٢)

وإذا كان أبرز الذين نقدوا شوقي هو العقاد، فإننا نلمس وراء كثير من ذلك النقد دوافع شخصية تنزت من كثير من نقوداته، يقول في الديوان " والحقيقة أن تهالك شوقي على الطنطنة الجوفاء قديم عريق، ورد به كل مورد، وأذهله عما ليس يذهل عنه بصير أريب "(١٣)، وهو هنا يتهم شوقي صراحة بالتهافت على حب الشهرة، ومحاولات الظهور، وهي – برأيه – ما دفع شوقي إلى الوقوع في المزالق الفنية للأدب.

وإذا كان هذا رأي العقاد، فهناك آخرون لا يرون في شوقي ذلك التهافت، ولا يرون به ما يقدح شخصيته، فيرى شوقي ضيف أنه " كان وديعاً، هادئاً، عف اللسان، يبتعد بنفسه عن الخصومات، مما جعله لاينتمي إلى حزب سياسي في عصره وكان فيه حياء شديد، فلايتكلم إلا بصوت خفيض " (١٤).

والمستقرئ للسهام التي شنت على شوقي بعد الإمارة تحديدا يجد فيها مسببات شخصية، وقد عرضنا في المبحث الأول لرأي الزهاوي في ذلك. وأيا يكن ؛ فإن المعروف عن شوقي أنه لم يكن يستعدي أحدا، ولم يكن يرد على متهميه.

الدافع السياسي

كان شوقي موالياً للخلافة العثمانية، مكثراً من مدح رجالاتها، وكان مقرباً من القصر بما يكفي لاستثارة العروبيين وسخطهم، مما جعل كثيرا منهم – داخل مصر وخارجها- يرون جهوده ضائعة، وموجهة إلى غير مكانها، فقد رأى أدباء بلا الشام أنه " لم يذكر بلاد الشام قبل

الحرب العالمية الأولى، لأن آماله وآمال المصريين كانت معلقة في ذلك الجيل على دولة الخلافة وعلى الأتراك " (١٥).

وهذا ما جعل الكثيرين يعرضون عن شعره سواء في بلاد الشام أم في غيرها من الأقطار العربية، كما أن كثيرين رأوا في إمارته للشعراء وجهاً سياسياً، ولا سيما بعض شعراء الأقطار العربية الذين كانوا يرون أنهم أحق منه بذلك مثل شعراء العراق الرصافي والزهاوي وبعض شعراء الشام، وبعضهم كان يفضل حافظ إبراهيم أو خليل مطران على شوقي مع أن حافظ كان أول المبايعين له.

وأياً يكن، فقد كان الدافع السياسي وراء كثير من النقد الذي دار حول شوقي حتى من أبناء مصر أنفسهم، فها هو العقاد يسلب شوقي وطنيته، ويلحقه بالترك المتمصرين، ولا سيما أن الوطن الذي يذكره شوقي في شعره هو وطن الأسرة المالكة، ووطن الحكام والسادة، لا وطن الشعب (١٦).

وكان العقاد يرى أن شوقي يستغل منصبه الوظيفي بحكم قربه من الخديوي، ويكثر من لقاء الصحفيين ورؤساء الأحزاب، من أجل الدعاية للقصر والترويج لنفسه. (١٧)

الدافع الفني

كان كثيرون ممن تابعوا شعر شوقي يبدون إعجاباً كبيراً به، وانحيازاً لشعره، سواء أكان ذلك في مصر- كما رأينا في صحيفة عكاظ - أو كان في البلدان العربية الأخرى، فهذا شكيب أرسلان يتحدث عن إعجابه بإحدى قصائد شوقي، فيقول: " من شدة إعجابي فقد قرأتها من أولها إلى آخرها عدة مرات، وعلمت أن هناك شاعراً مطبوعاً، وصرت كلما عثرت على شعر لأحمد شوقي أتهافت عليه تهافت الظمآن على نمير الماء " (١٨)

على أن مثل هذا الكلام لايجدي عند من يرفض نهج شوقي ويراه مقلداً لا يستطيع أن يكون نفسه، ومن هؤلاء العقاد، فمدرسة العقاد غير مدرسة شوقي، فانبرى له مهاجماً نهجه وأسلوبه ولا سيما صوره المستمده من التشبيه، وقد اختار العقاد أكثر قصائد شوقي من غرض الرثاء، مما يجعلنا نلمس تركيزاً فنياً على غرض دون غرض، وإن كنا نشتَمُّ من ذلك بعض النوايا المخفية وراء هذا الملمح الفني، إذ إن غرض الرثاء " تقليدي وشوقي لايرتفع فيه، لأن جمال شعره في موسيقاه وتصويره، لا في أفكاره، والرثاء من أهم الموضوعات الشعرية التي تحتاج شيئاً من التفكير العميق في فلسفة الموت والحياة ".(١٩)

ويؤكد العقاد على أن الخلاف بينه وبين شوقي ليس شخصياً، وإنما يتعامل في نقده من منطلق فني خالص إذ يقول: " ولقد فات أصحابنا سماسرة شوقي أن خلافنا معهم لم يكن خلافاً على درجات الإجادة وخطوات السبق.. ولكننا نختلف على نوع الشعر وجوهره، ثم على أدائه وطبقته، فربما كانت أرفع القصائد عندهم درجة أخسها عندنا معدناً، وربما طربوا كل الطرب من حيث نعزف كل العزوف "(٢٠).

الدافع الفكري

لما كان العقاد هو الأبرز في إطار المعركة النقدية على شوقي، صار لزاما الوقوف على المنطلقات الفكرية التي شكلت طبيعة تلك المعركة، والتي تصدر غالبا من البعد الفكري لصاحبها. والعقاد – كما عرفنا – أحد أهم أقطاب مدرسة الديوان، وهي مدرسة انفتحت على الغرب، ورأت في شعرهم نزوعا إلى التعبير الجواني عن الذات، أو التعبير عن الأشياء انطلاقا من أعماق الذات.

ولعل أبرز المؤثرات في نقودات العقاد هي تلك التي تصدر عن اطلاعه على النقد الإنجليزي عموما والمدرسة الرومانسية خصوصا، إذ توثق الصلات بين نقوده وآراء الرومانسيين، ومن أبرزهم وردز ورث الذي ظهر أثره جليا في العقاد، إذ ثار على سطحية التعبير، ودعا إلى الخيال المدعم بالعاطفة، ورأى أن العواطف والصور يذوب كل منهما في الآخر، وأن الشعر فيض من المشاعر العميقة.(٢١)

كما تأثر العقاد بكوليردج في نقده للصورة والخيال، فكوليردج اهتم بدور العاطفة في تشكيل الصورة، وتحدث عن الصور الذهنية، بحيث تصير الصور الخارجية أفكارا ذاتية، وتصير الأفكار الداخلية صورا خارجية(٢٢).

كما صدر العقاد في كثير من آرائه بحق شوقي عن تأثره بهازلت،وليس هذا غريبا إذا ما عرفنا أن العقاد يعود بفضل مدرسته كلها ومرجعيتها إلى هازلت، فيراه إمامهم بالنقد، وهاديهم إلى معاني الشعر، وأغراض الكتابة(٢٣).

المبحث الثالث: محاور المعركة وقضاياها النقدية

التقليد والتجديد

كنا قد أشرنا سابقا إلى الدور الذي

اضطلعت به مدرسة الديوان منذ نشأتها في التمرد على نهج القصيدة العربية التقليدية شكلاً ومضموناً وبناءً ولغة، وربما لأن روادها- ولا سيما- العقاد، فتنوا بنماذج الشعر الغربي، ورأوا في القصيدة العربية قيودا ساهمت في إسباغها عصور التخلف والانحطاط والتقليد، فهذا المازني ينفي شاعرية شوقي بقوله: " ليس شوقي عندي بالشاعر ولا شبهه، وإنه لقطعة قديمة متلكئة في زمن غابر لا خير فيه، يغني عنه كل قديم ولا يضيف هو إلى قديم أو حديث".(٢٤)

ولما كان العقاد القطب الأهم في هذه المدرسة، وكانت مواقفه النقدية حول شوقي هي الأهم في تاريخ المعارك النقدية، كان لا بد من الوقوف على أبرز القضايا النقدية التي وقفت عندها هذه المدرسة، والتي شكلت لبناتها حطب النقد المستعر الذي وجهه العقاد لشوقي.

فقد كان الاختلاف كبيراً بين مدرستي شوقي والعقاد، فالأول يعد من المحافظين المقلدين، في حين يعد الآخر من المجددين الميالين إلى النهج الغربي، والرافضين جمود القصيدة العربية " ومهما تكن أسباب هذا الاختلاف بين الإقبال على الوافد الغربي، أو المحافظة على التقليد العربي، فقد كان كل واحد صدى لاستجابات معينة في خضم حركة الفكر والفن في تلك الآونة"(٢٥).

ومن هنا، كان الاختلاف في النهج بيناً بين الرجلين وهو اختلاف جوهري، وقد انعكس ذلك على كثير من نقودات العقاد لشوقي. فهو يرى في معرض نقده أبياتاً من قصيدة رثاء بطرس غالي أن شوقي أخطأ عندما جعل سادات بطرس غالي يقصدون ناديه، ويتخذون منه موئلاً، وكهف رجاء يستعطون منه، ويتساءل متهكماً: أم تراه أخطأ التقليد ؟ (٢٦)

وما يهمني في هذا الرأي هو التساؤل الأخير، وهو تساؤل يشي بما يأخذه العقاد على شوقي من انتحائه النهج التقليدي، مما جعل ذلك التقليد الأعمى – حسب العقاد – يجعل شوقي يغفل عن مناسبة الكلام لمقتضى الحال.

وفي نقده لقصيدة رثاء محمد فريد يتهكم العقاد على هذه القصيدة عاداً الشاعر ينحو فيها نحو المكدين، فيقول متهكماً " مما نحى فيه فيلسوف الموت منحى الابتكار، ونزع فيه إلى الاستقلال بالرأي، ومعناه أحط من ذلك معدناً "(٢٧). والمهم هنا اتهامه شوقي بعد أن وسمه بأنه فيلسوف الموت، بأنه ينحو منحى الابتكار والتجديد – وبرأيه – ما هو كذلك وإنما هو في اطار التقليد والجمود.

على أن رأي العقاد في كل نقوداته يصدر عن فلسفة مدرسته تجاه القديم والجديد، ومع أن أحدا لا يستطيع أن يسلب شعر شوقي روح صاحبه، إلا أن مدرسة المحافظين، وإن أبدعت وأجادت، تبقى برأي العقاد وجماعته فقيرة إلى الروح التي يبحثون عنها في الشعر، والتي رأوا في التأثر بالغرب ملاذا لهم منها.

الطبع والجوهر والصنعة

يرى العقاد أن المحك الذي لا يخطئ في نقد الشعر هو إرجاعه إلى مصدره: فإن كان لا يرجع إلى مصدر أعمق من الحواس، فهو شعر القشور والطلاء، وإن كنت تلمح وراء الحواس شعوراً حياً، ووجداناً تعود إليه المحسوسات، كما تعود الأغذيه إلى الدم، ونفحات الزهر إلى عنصر العطر ؛ فذلك سر الطبع القوي، والحقيقة الجوهرية.(٢٨)

وفي معرض حديثه عن قصيدة في رثاء عثمان غالب يعيب العقاد على شوقي سقم الذوق ورداءة الطبع ويرى أنه يهزل في مواقف الجد ويضحك في موقف التأبين (٢٩)، وليس مستغربا مثل هذا النقد من العقاد، إذ إن مسألة الطبع والصنعة احتلت بعدا عميقا في مدرسة الديوان، فهم كانوا يريدون الشاعر أن يكون لسان حاله، لا أن يتقمص دور غيره.

وفي مقابل ذلك كان كثير من الأدباء والنقاد يتلقون شوقي على غير ما يتلقاه العقاد، فلا يرونه إلا شاعرا مطبوعا، ويبتعدون به عن الصنعة والتكلف اللذين وصم بهما، وقد عرضنا لرأي شكيب أرسلان في أن شوقي شاعر مطبوع، "وهذا الرأي النقدي من أديب معروف بأمير البيان – لا في بلاد الشام حسب بل في العالم العربي – له أهميته، ويعد بحق رأياً إيجابياً، وشهادة لها أهميتها في الحكم على شاعرية شوقي، وقدرته على نظم القوافي حين يصفه بشاعر مطبوع "(٣٠)

في حين كان العقاد يرى أن شعر شوقي ليس شعر الشخصية، والنفس الممتازة الخاصة، وليس هو رسالة حياة ولا نموذج من نماذج الطبيعة، و إنما هو ضرب من المصنوعات، والفرق بينه وبين شعر الشخصية ؛ أن الشخصية تعطيك الطبيعة كما تحسها هي لا كما تنقلها بالسماع والمجاورة من أفواه الآخرين (٣١).

اللفظ والمعنى

دعت مدرسة الديوان إلى ضرورة

تحرير اللغة الشعرية من القوالب الجاهزة، وإلى ضرورة التعبير عن المضامين الجديدة بلغة قادرة على التحليل والتركيب، واستبدال المعجم المهجور بمعجم آخر مأنوس يواكب في ألفاظه روح العصر.

وهي دعوة تقودنا إلى علاقة اللفظ بالمعنى، وهي علاقة جدلية قديمة، بيد أنها في معرض النقود التي وجهت إلى شوقي تنبع من روح العصرنة التي كان ينادي بها العقاد وصحبه، ولهذا نادت هذه المدرسة بأن يتحرر الأدب من الصناعة اللفظية، وأن يكون المضمون هو الذي ينبغي أن يعنى به الأديب أولاً، لأنه إذا اتضحت له المعاني استقامت له الألفاظ.

وقد بنى العقاد كثيراً من نقوداته لشوقي على مسألة التأويل، فوقف عند كثير من المعاني ورفضها جملة، وقد لاحظنا ذلك في معظم نقوداته ولا سيما في قصيدة رثاء محمد فريد، إذ كان يتأول كلام شوقي ثم يعلق سلباً على ما تأوله، والواقع أن كثيراً من ذلك التأويل لا يعدو كونه مجرد وجهة نظر للمتأول، وأبيات شوقي تحتمل تأويلات أخرى.. إذاً فالمعنى لم يسلم من صليل المعركة، وكان أحد سهام العقاد فيها (٣٢). ويلاحظ تأثر العقاد باستخدام المعجم اللغوي بكوليردج والمدرسة الرومانسية التي ترى ضرورة مناسبة هذا المعجم لروح العصر، في حين كانت اللغة كلها معجما لشعر شوقي، إذ لا فرق عنده – حسب رأي العقاد- بين لفظ قديم وآخر عصري.

الوحده العضوية

وحدة القصيدة عند مدرسة الديوان أن تكون القصيدة عملاً فنياً تاماً يكمل فيه تصوير خاطر أو خواطر متجانسة كما يكمل التمثال بأعضائه والصورة بأجزائها واللحن الموسيقي بأنغامه، بحيث إذا اختلف الوضع أو تغيرت النسبة أخل ذلك بوحدة الصنعة وأفسدها. وفيها انتقد العقاد شوقي.

ويرى العقاد أن قصيدة شوقي في رثاء محمد فريد تعد مثالاً على التفتت وغياب الوحدة العضوية أو المنطقية فيشير إلى أن أبيات هذه القصيدة، إما بيت حذفه وإثباته سواء، أو بيت حذفه أفضل من بقائه (٣٣). وهو بذلك يلمز بالوحده والترابط بين أبيات القصيدة، ولا سيما أن العقاد ومدرسته كانت تتخذ من الوحده العضوية مبدأ تنادي به.

على أن أبرز ما اهتمت به جماعة مدرسة الديوان في نقدها للمدرسة التقليدية هو قضية الوحدة العضوية أو الفنية في القصيدة، لأن من يدعو إلى الوحدة العضوية للقصيدة لابد أن يدعو بالضرورة إلى نبذ البناء التقليدي للقصيدة القديمة، وإلى ضرورة توافر التجربة الشعورية التي يستجيب فيها الشاعر لموقف عاطفي واحد (٣٤).

الصورة

يفرق العقاد إبان نقده لشوقي بين نوعين من الصورة، هما الصورة الحسية والصورة النفسية، ويرى أن هناك فرقاً كبيراً بين شعر الحس وشعر الروح، ويبين أن الشاعر الحق يكون صاحب صور نفسية، تنطلق من أحاسيسه هو ومشاعره الخاصة ولا تكون ملفقة ومقولبة ومقلده (٣٥).

وبرأيه فإن الشاعر هو من يشعر بجوهر الأشياء، لا من يعددها ويحصي أشكالها وألوانها، وليست مزية الشاعر أن يقول لك عن الشيء ماذا يشبه، وإنما مزيته أن يقول ما هو، ويكشف عن لبابه وصلة الحياة به... إن الناس جميعاً يرون الأشكال والألوان محسوسة بذاتها كما تراها، وإنما ابتدع لنقل الشعور بهذه الأشكال والألوان من نفس إلى نفس. (٣٦). وقد تركز نقده لشوقي على كثير من صور التشبيه في شعره.

وفي معرض تعليقه على الصورة عند شوقي يرى العقاد أن الصورة الشعرية هي اللبنة الأولى في البنية الحية من القصيدة، ولا بد أن تنهض بوظيفتها الفنية ضمن هذا المركب العضوي، وتتعطل هذه الصورة إذا اقتصرت على رصد الأعراض و تصوير العلاقات الحسية، فتشبيهات شوقي تتصف بسماكة تحول دون الشفافية النفسية، ويراه يحتفي بالتشبيهات التقليدية التي لا تشف عن الحالة الشعورية، ويقصد إليها قصدا حتى أصبحت غاية في ذاتها، لا وسيلة تنهض بالفكر وتسهم في الصورة. (٣٧)

الصدق والكذب

وفي معرض نقده لسينية شوقي وقصيدته التي ألقاها في حفل التتويج للإمارة نجد العقاد يشير إلى الصدق والكذب والمبالغه الممقوتة في الشعر، ولا أراه في ذلك إلا صدى لما جاء به حازم القرطاجني في المنهاج، فالعقاد – على غرار القرطاجني - يرى أن الشاعر قد يكون مبالغاً مخالفاً لظاهر العلم، وأنه مع هذا لصادق في المبالغة قدير في الوصف

والإبانة، ولكنه في المقابل لايحب الغلو في الإغراق ولا يراه بلاغة وشاعرية بل يرى فيه الكذب والافتراء(٣٨)، وهو بذلك أيضاً قريب مما جا في باب الاختلاق الإمكاني واللاإمكاني والمحال في الشعر مما جاء به القرطاجني.

ومن القضايا التي نادت بها مدرسة الديوان ما يسمى " صدق الوجدان" وذلك بأن يكون الشعر ترجمة عن النفس والوجدان، دون أن يكون الشاعر مشغولاً بغيره مردداً لأقوال سابقيه في معاني شعره، ونلمس من خلال هذه النظرة أن كثيرا من طعون العقاد على شوقي جردته من هذه السمة، لأنه يعتمد على قوالب جاهزة لا في الشكل فقط، وإنما في المضمون، فهو لا يكتب تجربته- حسب العقاد- بل ينقل تجارب الآخرين.

الخاتمة

بعد هذا الاستعراض لتجليات هذه المعركة، يتبيَّن لنا من تحت رمادها تلك الحظوة الكبيرة، التي حفلت بها تجربة شوقي، وتلك الأرضية الخصبة التي مهدها العقاد لانبثاق ذلك النفس التجديدي، الذي ربما كان مهادا لما جاء بعده من محاولات الغوص في النفس الشاعرة، لميلاد التجربة الشعرية.

وقد توصلت هذه الدراسة إلى عددٍ من النتائج:

- امتدت المعركة النقدية إلى أربع مراحل زمنية، تمثل في مجملها انعكاسات شعر شوقي، وكان أشد تلك المراحل فتكا هو بعد توليه الإمارة.
- لم تكن المعركة ذات دافع فني محض، بل كان هناك عدد من الدوافع الأخرى التي استلت سيوف الآخرين وكان منها ما هو سياسي، وما هو شخصي.
- كانت القضايا التي أشعلتها المعركة تدور حول الشكل والمضمون، وحول التجربة الشعرية بصدقها وكذبها، وحول اللفظ والمعنى، وإن كانت الأبرز فيها تلك التي تدور حول الصورة الفنية والتشبيهية تحديدا، وهي في كل ذلك صراع بين الصورة التقليدية المعتمدة على الحس، والتي يمثلها شوقي، والصورة الباطنية النفسية أو الذهنية التي يريدها العقاد.

وبعد، فإنّني أرى أنَّ هناك مادّة خصبة، يمكن أن تكون بعض نقاطها مواد قابلة للدراسة البحثية الموسعة، إذ إنَّ بحثا كهذا، لا يعدو كونه محاولة اكتناه ساحة المعركة، وتتّبعها ظاهريًا، أكثر من الغوص في أعماقها، وذلك أن العمق بحاجة إلى جلاء كل جوانب الموقف مما لاتحتمله دراسة كهذه.

الحواشي

(١) الجندي، أحمد أنور سيد أحمد، المعارك الأدبية، مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٨٣، ص٥٣٧

(٢) أرسلان، شكيب، شوقي، أو صداقة أربعين سنة، دار الفضيلة، القاهرة، ٢٠٠٣، ص ٧

(٣) نفسه ص ٨

(٤) العريان، محمد سعيد: الرافعي والعقاد، مجلة الرسالة، العدد ٢٤٩، ١٩٣٨/٤/١١

(٥) ضيف، شوقي شاعر العصر الحديث، دار المعارف، ١٩٥٣، ص ١٠٣

(٦) العقاد، عباس محمود،ساعات بين الكتب، مكتبة النهضة المصرية، ط٢، القاهرة، ١٩٦٨، ص٢٢١

(٧) الهلالي، عبدالرزاق، الزهاوي في معاركه الأدبية والفكرية، وزارة الثقافة،بغداد،١٩٨٢،ص٢١٨

(٨) نفسه، ص٢١٨-٢١٩

(٩) من ندوة حول " المعارك الأدبية وأثرها على الحركة الثقافية، الخميس ١٢ فيراير، وكالة الأنباء القطرية
www.qna.org.qa/News/١٥٠٢١٢٠٠١١٠١٥٢

(١٠) عطار، محمد عبدالغفور، العقاد، تهامة، جدة،١٤٠٥هـ، ص ١٣٧

(١١) عمار، محمود إسماعيل، المعركة الأدبية بين العقاد وشوقي، دار عالم الكتب، الرياض،٢٠٠٢، ص ٢١٧

(١٢) المجذوب، محمد، علماء ومفكرون عرفتهم، ج٢، ط ٤، دار الشواف، ١٩٩٢، ص٨٢

(١٣) العقاد،عباس محمود، الديوان، طبعة الشعب بمصر، ط٣، د ت، ص ١١.

(١٤) ضيف، شوقي، فصول في الشعر ونقده، دار المعارف،مصر، ط ٢، ١٩٧٧. ص ٣٣٦

(١٥) علي، محمد كرد:المعاصرون، دار صادر، بيروت، ط٢، ١٩٩٣. ص٦٧

(١٦) انظر عطار، محمد عبدالغفور، العقاد، ص ١٣٧ – ١٤٢

(١٧) نفسه، ص١٥٢

(١٨) أرسلان، شكيب، شوقي أو صداقة أربعين سنة، ص٨

(١٩) ضيف، شوقي، الأدب العربي المعاصر في مصر، دار المعارف، ١٩٩٢، ص٦٥ -٦٦

(٢٠) العقاد، عباس محمود، الديوان ص١٦٩

(٢١) عبد الحي، دياب، العقاد ناقدا، دار الشعب، القاهرة، ١٩٧٠، ص ٤٣٨

(٢٢) هلال، محمد غنيمي، النقد الادبي الحديث، دار نهضة مصر، القاهرة، ١٩٨٩، ص٤٢١

(٢٣) العقاد، عباس محمود،شعراء مصر وبيئاتهم، دار نهضة مصر، القاهرة، ١٩٨٨ ص١٩٢

(٢٤) الجندي، أحمد أنور سيد أحمد، المعارك الأدبية، مكتبة الإنجلو المصرية، ١٩٨٣، ص٥٣٩

(٢٥) عمار، محمود اسماعيل، المعركة الأدبية بين العقاد وشوقي ص٨

(٢٦) العقاد، عباس محمود، خلاصة اليومية والشذور، نهضة مصر، القاهرة، ١٩٩٥، ص ٩٦ – ٩٧

(٢٧) العقاد، عباس محمود، الديوان ص ١٢ – ٢٦

(٢٨) العقاد، عباس محمود، الديوان ص ٢٠ – ٢١

(٢٩) انظر، العقاد، عباس محمود، الديوان ص ٢٧ - ٣٧

(٣٠) الشلبي، فوزي، الحركة النقدية حول شعر أحمد شوقي الغنائي– رسالة ماجستير، جامعة اليرموك،١٩٨٦ ص٣.

(٣١) انظر، العقاد، عباس محمود،شعراء مصر وبيئاتهم، ١٥٧-١٦٠

(٣٢) انظر، العقاد، محمود عباس، الديوان ١٢ - ٢٦

(٣٣) انظر، نفسه، ص ١٢ – ٢٦

(٣٤) العشماوي، محمد زكي، دراسة في النقد الأدبي المعاصر، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية،١٩٩٣، ص ١٠٦.

(٣٥) العقاد، عباس محمود،ساعات بين الكتب ص ٢١٦

(٣٦) العقاد، محمود عباس، الديوان ١٢

(٣٧) عمار، محمود اسماعيل، المعركة الأدبية بين العقاد وشوقي، ص ٣٥

(٣٨) العقاد، عباس محمود،ساعات بين الكتب ص ٢٠

المصادر والمراجع

١. أرسلان، شكيب، شوقي، أو صداقة أربعين سنة، دار الفضيلة، القاهرة، ٢٠٠٣

٢. الجندي، أحمد أنور سيد أحمد، المعارك الأدبية، مكتبة الإنجلو المصرية، ١٩٨٣

٣. الشلبي، فوزي، الحركة النقدية حول شعر أحمد شوقي الغنائي– رسالة ماجستير، جامعة اليرموك،١٩٨٦

٤. ضيف، شوقي شاعر العصر الحديث، دار المعارف، مصر، ١٩٥٣

٥. ضيف، شوقي، فصول في الشعر ونقده، دار المعارف،مصر، ط ٢، ١٩٧٧

٦. عبد الحي، دياب، العقاد ناقدا، دار الشعب، القاهرة، ١٩٧٠

٧. عبد المطلب، محمد، من ندوة حول " المعارك الأدبية وأثرها على الحركة الثقافية"، الخميس ١٢ فيراير، وكالة الأنباء القطريةw ww.qna.org.qa/News/١٥٠٢١٢٠٠١١٠١٥٢

٨. العريان، محمد سعيد: الرافعي والعقاد، مجلة الرسالة، العدد ٢٤٩، ١٩٣٨/٤/١١

٩. العشماوي، محمد زكي، دراسة في النقد الأدبي المعاصر، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية،١٩٩٣

١٠. عطار، محمد عبدالغفور، العقاد، دار تهامة، جدة،١٤٠٥هـ

١١. العقاد، عباس محمود، ساعات بين الكتب، مكتبة النهضة المصرية، ط٢، القاهرة، ١٩٦٨

١٢. العقاد،عباس محمود، الديوان، طبعة الشعب بمصر، ط٣، د ت،

١٣. العقاد، عباس محمود، شعراء مصر وبيئاتهم، دار نهضة مصر، القاهرة، ١٩٨٨

١٤. عمار، محمود إسماعيل، المعركة الأدبية بين العقاد وشوقي، دار عالم الكتب، الرياض،٢٠٠٢

١٥. علي، محمد كرد:المعاصرون، دار صادر، بيروت، ط٢، ١٩٩٣.

١٦. هلال، محمد غنيمي، النقد الأدبي الحديث، دار نهضة مصر، القاهرة، ١٩٨٩

١٧. الهلالي، عبدالرزاق، الزهاوي في معاركه الأدبية والفكرية، وزارة الثقافة، بغداد،١٩٨٢

١٨. المجذوب، محمد، علماء ومفكرون عرفتهم، ج٢، ط ٤، دار الشواف، ١٩٩٢، ص٨٢